الباب الثاني

المعنى الدلالي للجاهلية

مدخل

اختلف كثير من الدارسين حول مدلول لفظة «الجاهلية» ونقيضتها «الحِلم» التي كثيراً ما تقترن بها، وقد اضطربت أقوالهم في ذلك وطالت مناقشاتهم، ولم يخلصوا إلى معنى دقيق محدد، ينصب على الإشارات اللغوية، وما تتضمنه من مفاهيم بيانية. وقد اشتدت الحماسة ببعضهم، فذهب يربط بين الحضارة والثقافة والجاهلية.

ومن هنا تعمقت الهوة بين التفسيرات، وتباينت الاتجاهات، وتدخلت الأهواء الشخصية في توجيهها، حتى أصبحنا نقرأ مقولات تتناقلها المؤلفات، وكأنها مسلمات توصلت إلى حقائق قاطعة. ولا شك أن مجهودات أولئك الدارسين، على الرغم من تباين مشاربهم، أو اتفاقهم في كثير أو قليل، هي مما يؤدي إلى تكامل الصورة في المستقبل[1].

---

(١) انظر على سبيل المثال:

عبد الغفار، الجاهلية قديماً وحديثاً ص ص٥ ـ ٧، ٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٢١ ـ ٢٢٢، ٢٥٢ ـ ٢٥٣، ٢٧٩، ٢٨٢.

الحوفي، الحياة العربية، ص ص٣٤٥ ـ ٣٥٠.

جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ١، ص ص٣٧ ـ ٤٣.

البياتي، تحديد مصطلح الجاهلية والأمية، مجلة كلية الآداب، بغداد ع٢٧ نيسان ١٩٧٩، ص ص٦٨ ـ ٩٠.

الجندي، تاريخ الأدب العربي ص ص٧ ـ ١٢.

ضيف، العصر الجاهلي ص ص٢٩ ـ ٤٢.

وجدي، نقد كتاب الشعر الجاهلي ص ص٣٢ ـ ٤٣.

قطب، جاهلية القرن العشرين ص ص٨ ـ ١٤.

شمس الدين، بين الجاهلية والإسلام، ص ص٢٣٥ ـ ٢٥٦.

القيسي وآخران، تاريخ الأدب الجاهلي قبل الإسلام ص ص٤ ـ ١٣.

الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، ص ص٢٥ ـ ٣٠.

على الرغم من أن هذا البحث استفاد كثيراً من المعالجات الفكرية التي أدلى بها الدارسون، فإنه يحاول أن ينحو هنا نحو اللغة واشتقاقاتها وظلالها، لكي يخرج بتفسير مقنع للألفاظ من وقعها نفسه، ابتداء من أبسط معانيها، وانتهاء بشمولها المطلق.

لقد كان من الضروري العودة إلى البنية الأساسية التي جاءت فيها هذه المفردة، أي العودة إلى استعمالها عند العرب. فلم يكن هناك بد من الابتداء بالقرآن الكريم، وبالحديث الشريف، لأنهما المصدران الرئيسان اللذان يعطيان الصورة الصادقة لذلك الاستعمال، وقد تبين لنا أن أهم معاني الجاهلية ومشتقاتها تنحصر في التالي:

ضدالعلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته، ويأتي بمعنى ضد الخُبر وعدم المعرفة المسبقة بالشيء. كما تتضمن المعنى الديني الجديد.

وإضافة إلى ذلك، فإن لفظة «الجاهلية» **نفسها، لم تستخدم إلا بعد مجيء الإسلام، ومن ثم أصبحت مقابل** «الإسلام»، **فالإسلام يعني: الحلم والعلم والأخلاق الحميدة، أما الجاهلية فتعني: التسرع والاندفاع والغضب والفتنة، والجهل، والوثنية.**

وتأتي مفردات اللغة المختلفة لتؤيد كل هذه الدلالات. فالجذر (جهل): يشير إلى أنه: **سلوك ثورة وغضب، وعاطفة عمياء هوجاء من غير تفكير في العواقب الوخيمة المترتبة عليه.**

أما نقيض (الجهل)، فهو (الحلم) ويعني: **التاني والتريث في ردة الفعل، والسيطرة على الذات، والقدرة على كبح جماحها.**

وقد دارت حول هذه الدلالات كل استعمالات تلكما اللفظتين. وعلى الرغم مما أشيع عن معنى الجاهلية، بأنها تعني عدم معرفة الكتابة، فإن لفظ «**الجهل**» لا يخرج عن معنى المعرفة اليقينية الإدراكية.

وعلى هذا، فإن الجاهلية، بمعنى الجهل بالدين، ليست معروفة أيضاً، وإنما ينحصر معنى مشتقاتها في مدلول واحد هو: الطيش والنزق. وتلقائياً اتخذت اللفظة المعاني التي تجعل الجاهلية بإزاء الإسلام، وقد تم هذا التحول في المعنى بتأثير من الإسلام نفسه.

الفصل الأول

المعنى الدلالي في القرآن الكريم والحديث الشريف

أ ـ في القرآن الكريم

هناك فرق شاسع بين استعمال القرآن الكريم لمادة «جهل»، والاستعمال السابق عليه؛ وقد ذهب بعض المفسرين إلى التوفيق بين المعنى الذي شاع قبل الإسلام، والمعنى الإسلامي، وذلك في إطار تلك المعاني السابقة، نجد هذا التوفيق عند تناولهم للآيات التي اشتملت على مشتقات تلك المادة، وذلك على النحو التالي:

جهل

ومن الملاحظ أنه جاء في صيغة الفعل المضارع:

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الأنعام: ١١١).

فالجهل هنا: ضد العلم، أي يجهلون: أنه الحق[1] وقيل يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة[2].

ضد الحلم، وذلك أنهم ما سألوا الآيات إلا لتوجيه بقائهم على

---

(١) عبد الله بن عباس، تنوير المقباس، ص٧.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ٧، ص٦٧.

دينهم، فإنهم كانوا مصممين على نبذ دعوة الإيمان، وإنما يتعللون بعلل طلب الآيات استهزاء.

ثم إن الاستدراك يرجع إلى ما تضمنه الشرط وجوابه: من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم، أي لا يؤمنون، ويزيدهم ذلك جهلاً على جهلهم، فهم مستهزئون، وإسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم، وهم أهل الرأي والحلم، فإنهم يرجى إيمانهم لو ظهرت لهم الآيات[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الأعراف: ١٣٨).

والجهل هنا هو:

ضد العلم، أو تصور الشيء على خلاف حقيقته: أي جهلهم بمفاسد عبادة الأصنام، وكان وصف موسى إياهم بالجهالة مؤكداً لما دلت عليه الجملة الاسمية: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، من كون الجهالة صفة ثابتة فيهم، وراسخة من نفوسهم[2].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (هود: ٢٩).

وهذا خطاب نوح عليه السلام إلى قومه. والجهل هنا بمعنى:

١ ـ ضد العلم، أي تجهلون أن هذا الأمر من الله تعالى.

---

(١) الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير، جـ٨، ص٧.
وانظر الجوزي، زاد المسير جـ٣، ص١٠٦.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٨، ص٨٢.

٢ ـ ضد الحلم، أي تجهلون لأمركم إياي بطرد المؤمنين[١].

وفي الآيتين نرى أن استعمال الفعل المضارع هنا دليل على أن الجهل هو ديدنهم، وأنهم يتعمدون الاستمرار فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ . . .﴾ (البقرة: ٢٧٣).

فالمعنى هو: يحسبهم الجاهل بأمرهم، فالجهل نقيض العلم، أي أراد الجهل الذي هو ضد الخُبْر، ولم يُرِد الجهل الذي هو ضد العقل[٣].

جهولاً

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢).

فالجهل هنا: ضد العلم: أي إنه ظلوم للأمانة جهول بحقها[٤].

جاهلين

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (البقرة: ٦٧).

---

(١) الجوزي، زاد المسير، جـ٤، ص٩٨.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١١، ص٥٦.

(٣) الطبري، تفسير الطبري، جـ٥، ص٥٩٤. وانظر القرطبي، الجامع. . .، جـ٦، ص٤٤٦، الجوزي، زاد المسير، جـ١، ص٣٢٨.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، جـ٢٢، ص ص٥٧ ـ ٥٨، وانظر الجوزي، زاد المسير، جـ٦، ص٤٢٩.

والجهل هنا: ضد الحلم: حيث انتفى من الهزء، لأن الهازىء جاهل لاعب، ولذلك تبرأ وتنزه عن الهزء لأنه لا يليق بالعقلاء[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنعام: ٣٥).

فالجهل يعني:

١ ـ ضد الحلم: أي لا تكونن ممن لا صبر له، لأن قلة الصبر من أخلاق الجاهلين[2]. وهذا أنسب للمعنى[3].

٢ ـ ويجوز أن يكون من الجهل الذي هو ضد العلم[4].

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ (الأعراف: ١٩٩).

فالجهل هنا:

ضد الحلم: الحض على التخلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء[5]، فالجاهلون ههنا هم السفهاء، لأن التعريف فيه لاستغراق هذه الطائفة من الجهال، وأعظم الجهل هو الإشراك، وما اتخاذ الحجر إلهاً، إلا سفاهة لا تعدلها سفاهة[6]، إذ إن الإشارة في الأصل بالجاهلين هنا إلى المشركين، ثم

---

(١) الجوزي، زاد المسير، جـ١، ص٩٧، وانظر ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١، ص٥٤٨.

(٢) الجوزي، زاد المسير، جـ٣، ص٣٣.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٦، ص٢٠٦، وانظر ص٢٠٧.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، جـ١١، ص ص٣٤٠ ـ ٣٤١، وانظر ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٦، ص٢٠٦.

(٥) الطبري، تفسير الطبري، جـ٧، ص٣٤٤.

(٦) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٨، ص ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

نسخ، وأصبح عاماً في الجهل[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (هود: ٤٦).

فالجهل هنا هو:

ضد العلم، وهو المعنى المناسب لمقابلته بقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ (يوسف: ٣٣).

والجهل بمعنى:

ضد الحلم: فالجاهلون هم سفهاء الأحلام[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (القصص: ٥٥).

والجهل هنا له معان هي:

١ ـ ضد الحلم: أي لا نطلب الجاهلين للجدال والمراجعة والمشاتمة[4]، وإننا لا نطلب دين الجاهلين[5].

٢ ـ ضد العلم: أي إن من خُلُقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق[6].

---

(١) الجوزي، زاد المسير، جـ٣، ص٣٠٨.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١٢، ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٢٦.
(٤) القرطبي، الجامع...، جـ١٣، ص٢٩٩.
(٥) الجوزي، زاد المسير، جـ٧، ص٢٣٠.
(٦) ابن عاشور تفسير التحرير، جـ٢٠، ص١٤٦.

جاهلون

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (يوسف: ٨٩).

فالجهل هنا هو:

ضد العلم: أي في حالة جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم[١].

ضد الحلم: فهذا دليل على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء، لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته، ويدل على أنه حسنت حالهم الآن، أي فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال[٢].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

فالجهل هنا هو:

ضد الحلم: فالجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم، فعلّمهم الله متاركة السفهاء[٣].

وقال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الزمر: ٦٣).

فالجهل هنا هو:

ضد العلم: لأنهم جهلوا دلالة الدلائل المتقدمة، فلم تفد شيئاً،

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، جـ١٦، ص٢٤٤، وانظر القرطبي، الجامع، جـ٩، ص٢٥٦.

(٢) القرطبي، الجامع، جـ٩، ص ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١٩، ص٦٩، وانظر الطبري، تفسير الطبري، جـ١٩، ص ص٣٤ ـ ٣٥، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٦، ص١٣١.

فعموا عن دلائل الوحدانية التي هي بمرأى منهم ومسمع، فجهلوا دلالتها على الصانع الواحد، ولم يكفهم هذا الحظ من الجهل حتى تدلوا إلى حضيض عبادة أجسام من الصخر الأصم. وحذف مفعول «الجاهلون» لتنزيل فعلتهم منزلة اللازم، كأن الجهل صار لهم سجية فلا يفقهون شيئاً[1].

جهالة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ (النساء: ١٧).

ومعنى الجهل:

١ ـ العَمد: أنهم يعملون ذلك على عمد منهم لله سبحانه وتعالى، وكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته[2].

٢ ـ ضد العلم: والجاهل بالشيء هو الذي لا يعلمه، ولا يعرفه عند الإقدام عليه، أو على حد تشبيهه بالجاهل، وإن كان عالماً به، لإتيانه الأمر الذي لا يأتي مثله إلا أهل الجهل به[3].

٣ ـ ضد الحلم: والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية[4].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ (الأنعام: ٥٤).

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٤، ص٥٧.

(٢) الطبري، تفسير الطبري، جـ٨، ص ص٨٩ ـ ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٩١، وانظر زاد المسير، جـ٢، ص٧.

(٤) ابن عاشور، تفسر التحرير، جـ٤، ص٢٧٨.

فالجهل هنا:

١ ـ ضد العلم: أنه من اقترف منكم ذنباً، فجهل باقترافه إياه، ثم تاب وأصلح ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لذنبه إذا تاب وأناب، أي إنه لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر[١].

٢ ـ ضد الحلم: إذ يبدو أنه المناسب هنا، لأنه عمل سوءاً عن حماقة من نفسه وسفاهة[٢].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ (النحل: ١١٩).

والجهل يعني:

١ ـ ضد الحلم: أي جهلوا بركوبهم ما ركبوا في معصية الله، وسفهوا بذلك[٣].

٢ ـ ضد العلم: أي انتفاء العلم بما يجب، والمراد جهالتهم بأدلة الإسلام[٤].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ (الحجرات: ٦).

فالجهل بمعنى:

١ ـ ضد العلم: أي عن طريق الخطأ[٥].

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، جـ١١، ص٣٩٣.
(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٦، ص٢٥٩.
(٣) الطبري، تفسير الطبري، جـ١٤، ص١٩٠.
(٤) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١٣، ص٣١٢.
(٥) القرطبي، الجامع، جـ١٦، ص٣١٢.

٢ ـ ضد الحلم: أي بسفه[١].

الجاهلية

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران: ١٥٤).

الضمير في «أَهَمَّتْهُمْ»، يرجع إلى المنافقين.

والجاهلية هي:

نسبة إلى أهل الشرك بالله[٢] الذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً، فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان، لم يدخل الإيمان في قلوبهم، فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية[٣].

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (المائدة: ٥٠).

الضمير في «يبغون»، يعود إلى اليهود، والجاهلية تعني: أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك[٤].

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (الأحزاب: ٣٣).

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٦، ص٢٣٢.
(٢) الطبري، تفسير الطبري، جـ٤، ص ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٤، ص١٣٦.
(٤) الطبري، تفسير الطبري، جـ١، ص٣٩٤.

وفي تفسير الجاهلية الأولى رأيان:

الأول:

هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، أو هي: ما بين آدم ونوح، أو هي: ما بين نوح وإدريس أو نوح وإبراهيم، أو ما بين موسى وعيسى، أو هي زمان داود وسليمان. وقد خالف الشعبي ذلك فحددها بالفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ، ويرى بعض المفسرين أنها سميت بالجاهلية الأولى لأن المرأة في تلك الفترة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير المخيط الجانبين، وتلبس الرقاق، ولا تواري بدنها، وتظهر ما يقبح إظهاره، وتتمشى بين الرجال، وكانت تجلس مع زوجها وعشيقها، فينفرد عشيقها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل[1].

الثاني:

أنها نسبة إلى الجاهل، لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وقد وصفها بالأولى لأنها أولى قبل الإسلام، وجاء الإسلام بعدها. وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ (النجم: ٥٠). وكقولهم: العشاء الآخرة[2]. وليس ثَمَّة عشاء أولى، بل المغرب هي العشاء الأولى.

ومع ذلك، فإنه يمكن توجيه التفسير الأول بأنه مرحلة من مراحل تطور المجتمعات البشرية، وأن الجاهلية الثانية هي الجاهلية التي تُعورف عليها بأنها سبقت الإسلام بمئة وخمسين سنة أو مئتي سنة.

---

(١) القرطبي، الجامع، جـ١٤، ص ص١٧٩ ـ ١٨٠، وانظر الطبري، تفسير الطبري، جـ٢٢، ص٥٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٦، ص ص٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٢، ص١٣.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ . . .﴾ (الفتح: ٢٦).

فالحمية، فعيلة من قول القائل: حمى فلان أنفه حمية ومحمية، وقال تعالى: «حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّة»، لأن الذين فعلوا من ذلك، كان جميعه من أخلاق أهل الكفر[١]. كما أن إضافة الحمية إلى الجاهلية لقصد تحقيرها وتشنيعها، فإنها من خلق أهل الجاهلية[٢].

وهكذا يمكن أن نحصر تلك التفسيرات للجهل ومشتقاته في القرآن الكريم، حسبما ذكره أولئك المفسرون في معنيين اثنين هما:

١ ـ ضد الحلم، والجهل هنا يشتمل على معاني: الحماقة والجدال، والمشاتمة والنزاع، والسفه والظلم، كما يتضمن صغر السن، وسوء المعاملة، والإقدام على العمل من غير روية.

٢ ـ ضد العلم، والجهل هنا بمعنى: تصور الشيء على خلاف حقيقته، ويأتي بمعنى ضد الخُبر، وعدم المعرفة المسبقة بالشيء، والعلم: هو طلب العلم، والسعي وراء مكارم الأخلاق.

وقد صار الجهل صفة لازمة وسجية ثابتة في نفوس مجموعات ثلاث اقترنت به، هي: اليهود، والكفار، والمنافقون.

أما المعنى الثالث الذي قال به الطبري في تفسير معنى **«الجهالة»** بالعَمْد، في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، فهو معنى يدخل في المعنى العام الأول، الذي دارت حوله الآيات السابقة، أي ضد الحلم، لأنه اشتمل على عصيان الله عزَّ وجل.

٣ ـ ويمكن أن يتبين المرء من ذلك أن الصفات النقيضة للحلم،

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، جـ٢٦، ص١٠٤.

(٢) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٦، ص١٩٤.

هي الصفات النقيضة للإسلام: أي الجهل، أي إن هناك معنى دينياً تشتمل عليه بعض تلك الآيات، وهو يعني الكفر والكفار عامة، وهذا صريح في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وهو أيضاً صريح في قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وفي قوله عز من قائل، في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾... إلخ.

فالجهل بالدين، الكفر، هو أصل منطلقات الجهل، أي هو عبادة من دون الله، أي الوثنية، بالنسبة للوثنيين، والشرك بالنسبة لليهود والنصارى، ثم الحماقة والكبرياء بالنسبة للمنافقين، ودافع هذا الجهل أمران هما: ضد الحلم وضد العلم.

ب ـ في الحديث الشريف

فمن الأحاديث الشريفة التي جاء فيها الجهل ومشتقاته:

جَهِل

قال ﷺ: «وإن جهَل أحدَكم جاهل، وهو صائم، فليقل إني صائم»[1].

وقال عليه السلام: «الصيام جنة، فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله، أو شاتمه، فليقل إني صائم..»[2].

وقال عليه السلام: «إنكم لتَبخَلون وتُجَبّنون وتجَهّلون»[3].

جهل

وقال ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[4].

---

(١) ابن عبد الرحيم، تحفة الأحوذي، جـ٣، ص٤٧٢.
(٢) البخاري، صحيح البخاري، جـ٢، ص٦٧٠.
(٣) ابن سورة، سنن الترمذي، جـ٤، ص٣٤٧.
(٤) البخاري، صحيح، جـ٥، ص٢٢٥١.

وقال ﷺ «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي خطاياي، وعمدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي...»[1].

وقال ﷺ: «إن بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج» أي القتل[2].

وقال ﷺ: «القضاة ثلاثة، اثنان في النار، وواحد في الجنة، رجل علم الحق فقضى به، فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل جار في الحكم فهو في النار»[3].

جُهّال

قال ﷺ: «إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم، فيُضلون ويَضلون»[4].

ولا تخرج مفردات الجهل هنا عن المعنيين السابقين في القرآن، ويكاد المعنى الأول الذي هو ضد الحلم يكون هو الغالب، أما المعنى الآخر الذي هو ضد العلم، فهو يسير أيضاً حسب المعنى السابق، وإن كان المعنى (ضد الخُبْر) هو بالتحديد أهم مدلول للجهل كما هو بيّن من الحديث الشريف الأخير، والحديث عن القضاة، ولكن الأمر هنا لا يتعلق بما قبل الإسلام من شرك ووثنية، وإنما هو جهل تطبيق، وليس جهل اعتقاد.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ٦، ص٢٥٩.

(٣) ابن ماجه، سنن...، جـ٢، ص٧٧٦.

(٤) البخاري، صحيح، جـ٦، ص٢٦٦٥.

الجاهلية

قال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[١].

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر رضي الله عنه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «من كره من أميره شيئاً، فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً، مات ميتة جاهلية»[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[٤].

وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية (أو قال بكفر)»[٥].

وقال ﷺ في حجة الوداع: «ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع. . ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع»[٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا»[٧].

وقال عليه الصلاة والسلام: «وأيّما حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شدة»[٨].

---

(١) المصدر السابق، جـ١، ص٤٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ٦، ص٢٥٨٨.
(٤) مسلم، صحيح مسلم، جـ٢، ص٦٤٤.
(٥) المصدر نفسه، جـ٢، ص٩٦٩.
(٦) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، جـ٢، ص١٠١٥.
(٧) مسلم، صحيح مسلم، جـ٤، ص١٩٥٨.
(٨) المصدر السابق، ص١٩٦١.

وقال عليه السلام: «ما بال دعوى الجاهلية..» وذلك بعد كَسْع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «والله، لقد أدركتهم في الجاهلية، وإن الرجل ليرعى على الحي، ما به إلا وليدتهم يطؤها»[2].

وفي الأحاديث الشريفة يتضح معنى الجهل والجاهلية اتضاحاً تاماً، فقد اشتملت على كل حالة يستنكرها الإسلام وينسبها إلى الوثنية، ويمكن اختصارها في التصرف تصرفاً لا يحكمه العقل، وينطلق من العاطفة العنيفة غير المتأنية المتأملة في الحدث. وهي إذا تتضمن التعبير عن الفترة الزمنية السابقة للإسلام، فإن الأحاديث الثلاثة الأخيرة، تؤكد هذا القسم الزمني، أي الوثنية خاصة.

وإذا كانت الآيات القرآنية الكريمة التي نصت على الجاهلية كلها مدنية، فإن استعمال لفظة «الجاهلية» عموماً، لم يكن إلا في المدينة؛ وعلى هذا يمكن القول، كما هو واضح من ورودها في حجة الوداع، واشتمالها في الأحاديث الشريفة على معاني الأحكام: إنها قيلت أيضاً في الفترة المدنية.

بل لقد عرفت هذه اللفظة في المدينة أيضاً قبل موقعة بدر، في السنة الثانية للهجرة، إذ يقول عبد الرحمن بن عوف: «كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صياغتي بمكة وأحفظه في صياغته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني

---

(١) المصدر نفسه، ص١٩٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٩٩.

باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو. فلما كان في يوم بدر..»[1].

وهكذا أصبحت هذه اللفظة شائعة على الألسن مبينة الأوضاع المخالفة للإسلام، فمن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «**كان أهل الجاهلية لا يفيضون من جَمْع حتى يروا الشمس على ثَبير، وكانوا يقولون: أشرق ثبير، كيما نغير، فأفاض رسول الله ﷺ قبل طلوع الشمس**»[2].. وقول معاوية بن الحَكَم السّلَمي: «**إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان.. ومنا رجال يتطيرون..**»[3].

ويدل تنسيق استخدام مادة «جهل» على هذا دلالة قاطعة: ففي «صيغة الفعل المضارع»، كانت السور الثلاثة (الأنعام ـ الأعراف ـ هود)، كلها مكية، وهذا تأكيد على استمرار العرب الوثنيين على ما هم فيه من غي وضلالة، وهذا متضمن أيضاً في ذكر ردة بني إسرائيل إلى عبادة الأوثان في آية الأعراف (١٣٨).

أما في صيغة المبالغة (جهول)، أو صيغة اسم الفاعل (جاهل)، مفرداً أو جمعاً، فإن المعنى ينحصر في عدم العلم، وضد الحلم، وقد جاء هذا في كل السور المكية، ما عدا سورتي البقرة والأحزاب المدنيتين. وهكذا جاء المصدر (جهالة) في سورتين مكيتين، هما: (الأنعام والنحل)، وسورتين مدنيتين هما: (النساء والحجرات).

وفي المرحلة المدنية الخالصة، جاء المصدر الصناعي «الجاهلية» معرفاً، يشير إلى نقيض الإسلام تماماً، من علم، وحلم، ودين.

---

(١) البخاري، صحيح، جـ١٠، ص١٣١. صياغتي: صياغة الرجل خاصيته، ومن يصغي إليه.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند، جـ١، ص٤٢.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، جـ١، ص٣٨٢.

الفصل الثاني
اشتقاق الكلمة ورموزها

الأصل الاشتقاقي

من الملاحظ أن كثيراً من ألفاظ اللغة العربية مشتقة من أصول مادية ترتبط بالممارسات الحياتية التي كان يعتمد عليها الإنسان العربي خلال مراحله التاريخية القديمة، وعلى هذا الأساس نجد كلمة «جهل» ترتبط بأحد المصادر التالية:

اللغة العربية الجنوبية

من حيث صلة اللغة العربية الشمالية باللغة العربية الجنوبية، كإحدى اللغات السامية، فإن «المجهل والمجهلة والجهل والجهيلة» تعني: الخشبة التي يحرك بها الجمر والتنور، وهي لغة يمانية.

ولعل فيها ما يحول بينك وبين النار التي تجهل نتائجها[1].

في اللغة الفصحى

البيئة

توصف الصحراء بأنها «مجهل ومجهولة»[2]، والأراضي المجهولة: هي التي لا يُهْتَدَىٰ فيها ـ فهي إغفال ـ ليس بها أثر عمارة[3]. وهذا يعني عدم المعرفة حيث يضل بها الإنسان، ومن

---

(١) الزبيدي، تاج العروس «جهل».
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن منظور، اللسان، «عمي».

معاني الجاهلية عدم العلم بالشيء. وقد ذكر شعراء الجاهلية هذه الصفة، قالت جنوب في أخيها:

وَخَـرْقٍ تَـجَـاوَزْتَ مَـجْـهُـولَـةٍ بِـخَـرْقَـاءَ حَـرْفٍ تَـشَـكَّى الْكَلاَلا[1]

وقال امرؤ القيس يصف حماراً:

يُـوَارِدُ مَـجْـهُـولاَتِ كُـلِّ خَـمِـيـلَـةٍ يَـمُـجُّ لُـفَـاظَ الْبَـقْـلِ فِي كُـلِّ مَـشْـرَبِ[2]

وقال الأعشى:

كَـلَّفْتُ مَجْهُولَهَا نَفْسِي وَشَايَعَنِي هَـمِّي عَـلَـيْـهَـا إِذَا مَـا آلَـهَـا لَـمَـعَـا[3]

وقال كذلك:

كَـلَّفْتُ مَـجْـهُـولَـهَـا نُـوقـا يَـمَـانِـيَـةً إِذَا الْـحَـدَاةُ عَـلَـى أَكْـسَـائِـهَـا حَـفَـدُوا[4]

وقال أيضاً:

أَذْهَـيْـتَـهُ بِـمَـهَـامِـهٍ مَـجْـهُـولَـةٍ لاَ يَـهْـتَـدِي بُـرْتٌ بِـهَـا أَنْ يَـقْـصِـدَا[5]

وقال سويد بن أبي كاهل:

فَـرَكِـبْـنَـاهَـا عَـلَـى مَـجْـهُـولِـهَـا بِـصِـلاَبِ الأَرْضِ فِـيـهِـنَّ شَـجَـعْ[6]

الناقة

---

(١) العلوي، نضرة الإغريض، ص١١٧. خرق: الفلاة الواسعة. خرقاء: ناقة لا تبالي بالمخاطر. الكلال: الإعياء.

(٢) ابن منظور، اللسان، «لفظ»، والبيت غير موجود في ديوانه.

(٣) ديوانه، ص١٠٣. الآل: السراب.

(٤) القرطبي، الجامع، ج١٠، ص١٤٣ وهو غير موجود في ديوانه. الأكساء: جمع الكُسْي، وهو مؤخر العجز. حفدوا: خفوا في العمل وأسرعوا.

(٥) ديوانه، ص٢٢٩. المهامه، جمع مهمهة، وهي الصحراء. البرت: الدليل.

(٦) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص٣٩٠. ركبناها: تعسفنا ركوبها على جهل بمسالكها وأعلامها. صلاب الأرض: بخيل صلاب الحوافر، وأرض الفرس: حوافرها. الشجع: جنون من نشاط.

وصف شعراء الجاهلية الناقة بأنها «مجهال»، فقال حميد بن ثور:

جَهُولٌ كَأَنَّ الْجَهْلَ مِنْهَا سَجِيَّةٌ غَشَمْشَمَةٌ لِلْقَائِدَيْنِ رَهُوقُ[1]

وقال ابن مقبل:

مِجْهَالُ رَأْدِ الضُّحَى حَتَّى تُوَزِّعَهَا كَمَا تُوَزِّعَ عَنْ تَهْذَائِهِ الْخَرِفَا[2]

كما قد يفهم هذا المعنى من قولهم: «ناقة مجهولة [أي إنها] لم تحلب قط»[3].

عاد والحلم

ومن اللافت للنظر أن الحِلم كان صفة محببة إلى العرب، ولذلك نجدهم ينسبونه إلى عاد، رغم أن قوم عاد لم يكونوا - حسب المفهوم الديني - حلماء. مما يرجح أن المعنى الذي سنناقشه بعد حين، هو التحكم في النفس، يقول زهير بن مسعود الضبي:

كَأَنَّهُمْ عَادٌ حَلُومًا إِذَا طَاشَ مِنَ الْجَهْلِ الْقَطَارِيبَ[4]

ويقول النابغة في الغساسنة:

أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَادٌ مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْمَعَقَّةِ وَالآفَاتِ وَالإِثَمِ[5]

---

(١) ديوانه، ص٣٦. غشمشمة: ناقة عزيزة النفس. رهوق: كأنها ترهقك إذ تقودها حتى تكاد تطؤك بخفيها.

(٢) ديوانه، ص١٨٧. المجهال: الناقة التي تخف في سيرها. رأد الضحى: وقت ارتفاع النهار واشتداد الحرارة. توزعها: تكفها وتمنعها شدة السير. التهذاء: الهذيان. الخرق: الأخرق. وانظر: الزمخشري، أساس البلاغة «جهل».

(٣) ابن منظور، اللسان، «جهل».

(٤) الجبوري، قصائد جاهلية نادرة، ص٩٤. القطاريب: السفهاء الجهال.

(٥) ديوانه، ص١٠١. المعقة: يريد عقوق الرحم، أي هم برآء من العقوق والآفات، والعيوب.

وقال الأعشى:

إِذَا مَـا هُـمُ جَـلَـسُـوا بِـالْـعَـشِـيِّ فَـأَحْـلَامُ عَـادٍ وَأَيْـدٍ هُـضُـمْ[1]

وقال الآخر أيضاً:

عَلَى امْرِىءٍ هَدَّ عَرْشَ الْحَيِّ مَضرَعُهُ كَـأَنَّـهُ مِـنْ ذَوِي الأَحْـلَامِ مِـنْ عَـادِ[2]

وقال الآخر أيضاً:

وَأَحْـلَامُ عَـادٍ لاَ يَـخَـافُ جَـلِـيـسُـهُـمْ وَإِنْ نَـطَـقَ الْـعَـوْرَاءَ غَـرْبَ لِـسَـانِ[3]

ففي هذه الأبيات تركيز على القيمة الاجتماعية لأولئك السادة الذين يتصدرون قيادة عاد أو مجالسهم، وهي قيمة سنجدها تتردد كثيراً في الشعر العربي، حاملة للفكرة نفسها.

من رموز الجهل

الفراش

ويكشف عن معنى الحلم، في مقابل الجهل بمعنى الطيش، التمثيل له بانقضاض الفراش على النار، كما قال جرير:

أَزُرَى بِـحِـلـمِـكُـمُ الْـفـيَـاشُ فَـأَنْـتُـمُ مِثْلُ الْفَرَاشِ غَشِينَ نَارَ الْمُصْطَلِي[4]

وهكذا جاء المثل: أجهل من فراشة.

راعي الغنم

بل ضربوا المثل براعي الغنم، فقالوا:

---

(١) ديوانه، ص٤١. هضم: يد هضوم، تجود بما لديها، والجمع هُضُم.

(٢) العسكري، جمهرة الأمثال، جـ١، ص٤٠٧.

(٣) البصري، الحماسة البصرية، جـ١، ص٤٨٣.

(٤) شرح ديوانه، ص٤٤٧. الفياش: المفاخرة.

أجهل من راعي ضأن: لأن بعده عن الناس فوق بعد راعي الإبل[1].

فقد أصبح الفراش رمزاً للإيغال في الجهل، لأنه يُقدِم على حرق نفسه، على الرغم من أن نهايته فيها. ويكشف الرمز عن بعد عميق للاندفاع مع الرغبات والنزوات من غير أن يكون هناك تبصر وتدبر لما سيواجهه جراء ذلك.

أما رمز الراعي، فذو دلالة كبيرة للأثر النفسي الذي يحدثه التوحش والاعتزال عن الآخرين؛ إذ يترتب على ذلك ألا تتهذب أخلاقه، ولا تتوطن نفسه على الاجتماع بهم، فيتصرف تصرفاً أهوج، أحمق، يَضعف العقل عن توجيهه نحو مساره الصحيح. وفي التراث الأدبي أمثال عدة تتفق في مدلولاتها مع هذين البعدين لرموز الجهل ونقيضه الحِلم.

(١) العسكري، جمهرة الأمثال، جـ١، ص٣٣٤.

الفصل الثالث
المعنى الدلالي في الشعر

الصورة العامة للجهل والحلم

إذا نظرنا إلى الكلمة ومشتقاتها من الناحية الدلالية في شعر ما قبل الإسلام، فإننا سنجد أن جميع الدلائل المنبثقة من الجذر «ج ـ هـ ـ ل» تؤدي إلى أنه سلوك ثورة وغضب، وعاطفة هوجاء عمياء من غير تفكير في العواقب الوخيمة المترتبة عليه. إنه سلوك الرجل ذي الطبيعة العاطفية الجياشة، الذي ليست لديه القدرة على التحكم في مشاعره وعواطفه، ولكنه يستسلم لما تمليه عليه المشاعر العنيفة، فلا يميز بين الصواب والخطأ، ولذلك علّق ابن منظور على قول النابغة:

دَعَاكَ الْهَوَى واسْتجْهَلَتْكَ الْمَنَازِلُ وَكَيفَ تَصَابِي الْمَرْءِ والشَيبُ شَامِلُ

فقال: «**وكل ما استخفَّك، فقد استجهلك**»[1]. إن حالة الخفة الناجمة عن الجهل تعني: التسرع الشديد نحو ممارسة الفعل. كما نجد ذلك واضحاً في قول ابن أحمر الشاعر المخضرم:

وَدُهْمٍ تُصَادِيهَا الْوَلاَئِدُ جِلَّةٍ إِذَا جَهِلَتْ أَجْوافُهَا لَمْ تَحَلَّمِ[2]

فالجهل هنا: «جهلت»، كناية عن الغليان الشديد، بحيث تصبح الإفرازات الداخلية متهيجة جداً، فلا يمكن بحال من الأحوال إيقافها،

---

(١) ابن منظور، اللسان، «جهل».

(٢) شعره، ص١٤٩. الدهم: الفدور السود. تصاديها: تداريها وترفق بها. جهلت أجوافها: غلت وفارت. لم تحلم: لم تسكن بهدوء لعظمها.

أو السيطرة عليها، وتُلغَى ـ نتيجة ذلك الهيجان الهادر ـ أية سلطة للحلم «لم تحلم».

إن هذه الصورة تمثل الوضعين الخارجي والداخلي للجهل، بحيث لا تخرج عن حالة التوتر والغضب. وهناك كناية أخرى تبين الضغط الداخلي، كما يعكسه الضغط الخارجي، وهي «الحُبى». يقول كعب بن سعد الغنوي:

حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ الْجَهْلِ أَطْلَقَتْ حُبَى الشِّيبِ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غَلُوبُ[1]

ويبين هذا البيت سطوة الجهل وعلاقته بالانفعال الشديد، إذ إن قوة الغضب تؤدي إلى حل حبى الشِّيب، وهم الذين يمكن أن يكونوا أقل تهوراً واندفاعاً ممن هم أصغر منهم سناً.

وتأتي الصورة نفسها عند الخنساء التي تقول:

فَتىً كَانَ ذَا حِلْمٍ رَزِينٍ وَتُؤْدَةٍ إِذَا مَا الْحُبَى مِنْ طَائِفِ الْجَهْلِ حُلَّتِ[2]

وفي مقابل هذه الصورة عن الجهل تأتي صورة أخرى عن الحلم، لتبين كيف يكون الجهل هو الغضب؛ أما الحلم، فإن تحصيله ليس سهلاً حتى ممن أدرك الأمور وعرفها، كما يقول مرة بن منقذ:

حَلِيمٌ فِي شَرَاسَتِهِ إِذَا مَا حُبَى الْحُلَمَاءِ أَطْلَقَهَا الْمِرَاءُ[3]

ويقول الحطيئة، مادحاً بني سعد:

يَسُوسُونَ أَحْلَاماً بَعِيداً أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْحَفِيظَةُ وَالْجِدُّ[4]

---

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص٩٥، الحبى: جمع حَبوة حُبوة، وهي عمامة أو نحوها، يجمع بها بين الظهر والساقين.

(٢) ديوانها، ص١٩.

(٣) الخالديان، الأشباه والنظائر، جـ٢، ص١٥٩. المراء: الجدل والخصومة.

(٤) ديوانه، ص١٤٠.

وانطلاقاً من ذلك، فإن هذا المعنى، هو المعنى الدلالي الأول الذي تعود إليه جميع الدلالات في الجاهلية، وتنبثق منه، فيتكون لدينا معنيان متقابلان، هما ـ حسب هذا المفهوم: **جهل/حلم**.

ثنائية جهل/حلم

تبين لنا أن «الجهل سلوك نمطي لصيق بالرجل ذي الدم الحار، الذي يميل إلى فقدان مزاجه لأدنى إثارة، فيستسلم لإحساساته المتوترة. أما الحليم، فهو الرجل الذي يعرف كيف يسيطر على انفعالاته وعواطفه المحمومة، ويتمكن من تهدئة نفسه وإخضاعها للعقل والحكمة»[1]. ولذلك فإنه حتى الحلم نفسه، قد ينقلب إلى **جهل**، نتيجة لتلك التصرفات. وقد جاءت الكناية «**زلت النعل**» لتعني عدم القدرة على الثبات والاتزان أمام تحديات الجهل.

يقول زهير:

تَدَارَكْتُمَا الأحلافَ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانَ إِذْ زَلَّتْ بِأَحْلَامِهَا النَّعْلُ[2]

وإذا كان الجهل طيشاناً وانفلاتاً من رقابة العقل والتحكم في المواقف، فإن أماراته الخارجية سرعان ما تظهر على صاحبها، هادرة صارخة، يقول رجل من بني ضبة:

إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَغْلِبْ لَكَ الْجَهْلَ لَمْ تَزَلْ عَلَيْكَ بُرُوقٌ جَمَّةٌ وَرَوَاعِدُ[3]

فالجهل والحلم، إذن، قوتان متصارعتان، لا تحتاج الأولى إلى تأمل في الموقف، مثلما تحتاج إليه الثانية. ومع ذلك، فلا بد من التفريق بين الحلم الإيجابي والحلم السلبي. **فالحلم** حين يمر بمرحلة التأمل والتفكير لا بد أن يعكس حالتين: الضعف أو القوة.

---

(١) *Izutsu, «God and Man» P.207*.

(٢) شرح شعره، ص٩١. الأحلاف: عبس وذبيان. ثل عرشها: هُدم بناؤه.

(٣) الأخفش، كتاب الاختيارين، ص١٦٨.

وتدل الإشارات كلها على أن الحلم في الجاهلية هو الحلم ذو الجانب الإيجابي، الحلم الذي يجابه الموقف من منطلق القدرة على تحديات الجهل. فالرجل الضعيف بطبيعته لا يطلق عليه أساساً حليم، مهما بلغ من تهدئة غضبه عندما يُمس إحساسه، إنه رجل ضعيف؛ أما الحليم، فهو الذي يمتلك قوة، قوة تدفعه إلى ممارسة جميع أنواع العنف عندما يستثار، وفي الوقت نفسه لديه قوة على كبح جماح نفسه عن الإقدام على العنف[1]. يقول سالم بن وابصة:

إِنَّ مِـنَ الْـحِـلْـمِ ذُلاً أَنْـتَ عَـارِفُـهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ[2]

وهكذا يقول عنترة:

يَـرَوْنَ اخْـتِـمَـالِي عِـفَّةً فَـيُـرِيـبُـهُـمْ تَـوَقُّرُ حِـلْـمِي أَنَّنِي لَـسْتُ أَغْـضَـبُ
تَـجَـافَـيْتُ عَـنْ طَـبْـعِ الـلِّـئَـامِ لأَنَّـنِي أَرَى الْبُخْلَ يَشْنَا وَالْمَكَارِمَ تُطْلَبُ[3]

ويقول قيس بن رفاعة:

أُولُـو أَنَـاةٍ وَأَحْـلامٍ إِذَا غَـضِـبُـوا لاَ قَـصِـفُـونَ وَلاَ سُـودٌ رعَـابِـيـبُ[4]

فالحلم هنا يعني: التأني والتريث في ردة الفعل بما قد يوصف بالضعف، فيُشعر منه الجبن والتردد، ولكنه في واقع الأمر حلم صادر عن قوة وتثبت، لا عن عجلة وتهور. ولذلك قال قيس بن زهير العبسي:

أَظُـنُّ الْـحِـلْـمَ دَلَّ عَـلَـيَّ قَـوْمِـي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ[5]

فالحليم يظل قوياً حين يتجاسر عليه من يرى فيه ضعفاً، وحين

---

(١) *Izutsu, God.., P.207.*

(٢) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، جـ٣، ص١١٦١.

(٣) ديوانه، ص٩٤.

(٤) ابن منظور، اللسان، «قصف». رجل قصف: سريع الانكسار عن النجدة.

(٥) المرزوقي، الحماسة، جـ١، ص٤٢٨.

يصمد لهذه الجرأة، فإنَّ جَهْل أولئك يصبح ضعفاً، ويبقى الحلم مظهر قوة، وليس مظهر عجز. وقد أوضح غريقة بن مسافع العبسي نوع ذلك الحليم. فقال:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ[1]

ويتجلى معنى السيطرة على الذات، والقدرة على كبح جماحها في الربط بين **الحلم والصبا** ـ أي **جَهْل السن**، كما يُستشف ذلك من قول امرىء القيس:

إِلى مِثْلِهَا يَرْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً إِذَا مَا اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ[2]

وقول المخبل السعدي:

ذَكَرَ الرَّبَابَ وَذِكْرُهَا سُقْمُ فَصَبَا وَلَيْسَ لِمَنْ صَبَا حِلْمُ[3]

فالصبابة والصبا من أعمال الصِّبْية، أي: اللهو واللعب.

ولذلك قال النمر بن تولب:

أَلَيْسَ جَهْلاً بِذِي شَيْبٍ تَذَكُّرُهُ مَلْهَى لَيالٍ خَلَتْ مِنْهُ وَأَيَّامِ[4]

وليس بعيداً بعد ذلك عن هذه المفارقة بين الجهل ـ الصبا/ الحلم ـ تقدُّم السن، قول عامر بن الطفيل:

فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْحِلْمِ التَّأَنِّي عَلَى مَهَلٍ وَلِلْجَهْلِ الشَّبَابُ[5]

وقول النابغة:

---

(١) الأصمعي، الأصمعيات، ص١٠٠.

(٢) ديوانه، ص١٨. اسبكرت: امتدت وتم طولها. الدرع: ثوب تلبسه الشابة. المجول: الثوب الخفيف يلبسه الصبيان.

(٣) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص٢٠٧.

(٤) شعره، ص١١٢.

(٥) ديوان شعره، ص١٢٩.

فَـإِنْ يَـكُ عَـامِـرٌ قَـدْ قَـالَ جَـهْـلاً فَـإِنَّ مَـظَـنَّـةَ الـجَـهْـلِ الـشَّـبَـابُ[1]

ويعكس القول التالي لعبيد ذلك الارتباط الوثيق بين المرحلتين:

وَكُـهُـولٍ ذَوِي نَـدىً وَحُـلُـومٍ وَشَـبَـابٍ أَنْـجَـادِ غُـلْـبِ الـرِّقَـابِ[2]

فالجهل مرتبط بالشباب، بحيث يؤدي إلى عواقب وخيمة. قال عدي:

أَعَـاذِلُ إِنَّ الْـجَـهْـلَ مِـنْ لَـذَّةِ الْـفَـتَـى وَإِنَّ الْـمَـنَـايَـا لِـلـنُّـفُـوسِ بِـمَـرْصَـدِ[3]

ومن ثم «فإن عدم القدرة على التمييز بين الحلم الحقيقي والضعف لا تظهر في مجال الحياة العامة أو العلاقات الإنسانية الخاصة فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى المستوى الديني. ولعل موقف كفار مكة من أظهر هذه المواقف، كما بيّن لنا القرآن الكريم. فكفار مكة لم يتقبلوا الإسلام، بسبب غطرستهم وثقتهم المفرطة في أنفسهم، مع تحد للدين الجديد عندما رأوا أن العذاب الموعود لم يحل بهم كما جاء في القرآن الكريم. فهم قد فهموا الحلم الإلهي على أنه وداعة وخلو من القوة»[4].

وإذ يرتبط الجهل بالغضب، والحلم بالسيطرة، تتولد علاقة جديدة بينهما، فالجهل يدفع إلى التنفيذ واستعمال القوة، أما الحلم، فإيقاف لهما وتحكم فيهما، يقول الشاعر المخضرم معبد بن علقمة:

وَتَـجْـهَـلُ أَيْـدِيـنَـا ويَـحْـلُـمُ رَأْيُـنَـا وَنَـشْـتُـمُ بِـالأَفْـعَـالِ لاَ بِـالـتَّـكَـلُّـمِ[5]

---

(١) ديوانه، ص١٠٩.

(٢) ديوانه، ص٢٢.

(٣) ديوانه، ص١٠٣.

(٤) *Izutsu, God.., P.209.*

(٥) المرزوقي، الحماسة...، ج٢، ص٧٥٢.

ولذلك ارتبطت الحرب بالجهل، فقال عمرو بن معد يكرب:

الْـحَـرْبُ أَوَّلُ مَـا تَـكُـونُ فَـتِـيَـةً تَـسْـعـى بـزِيـنَـتِـهَـا لِـكُـلِّ جَـهُـولِ[1]

وقال عبد القيس بن خفاف البرجمي:

حَـلِـيـمٌ وَلَـكِـنَّـهُ فِـي الْـحُـرُوبِ إِذَا مَـا تَـلَـظَّـتْ تَـرَاهُ جَـهُـولا[2]

غير أنه من الصعب الجمع بين هاتين الخصلتين المتناقضتين، فهما لا يجتمعان إلا لمن أتيح له حظ من القوة والعزم، ويوضح هذا المعنى قول القائل:

إِذَا شِـئْـتَ يَـوْمـاً أَنْ تَـسُـودَ عَـشِـيـرَةً فَـبِـالـحِـلْـمِ سُـدْلاً بِـالـتَّـسَـرُّعِ والشَّـتـم
وَلَـلْـحِـلْـمُ خَـيْـرٌ فَـاغْـلَـمَـنْ مَـغَـبَّـةً مِـنَ الْـجَـهْـلِ إِلاَّ أَنْ تَـشَـمَّـسَ مِـنْ ظُـلْـم[3]

ومن هنا ارتبط الحلم بتقدم السن، كما مر بنا، فاستعملت عبارة **«العصا قُرعت لذي الحلم»** كناية عن كبر السن، يقول المتلمس:

لِذي الْحِلْمِ قَبْلَ الْيَومِ مَا تُقْرَعُ الْعصَا وَمَـا عُـلِّـمَ الإِنْـسَـانُ إِلاَّ لِـيَـعْـلَـمـا[4]

وقال الحارث بن وعلة الذهلي:

وَزَعَـمْـتُـمْ أَنْ لاَ حَـلُـومَ لَـنَـا إِنَّ الْـعَـصَـا قُـرِعَـتْ لِـذي الْـحِـلْـمِ[5]

فاكتساب الحلم، إذن، علامة من علامات السيادة والتقدم في السن. وإذا كان الجهل استجابة فورية تُلصق بكل من يستجيب لها، وتتنامى نحو الأسوأ، فإن الحلم صفة مكتسبة لا بد من الحرص على المحافظة عليها. يقول حاتم:

---

(١) شعره، ص١٤٢.

(٢) البصري، الحماسة البصرية، ص ١٢٧.

(٣) المرزوقي، الحماسة، ج٣، ص١١١٩.

(٤) شعره، ص٢٦.

(٥) ابن منظور، اللسان «قرع».

تَحَلَّمْ عَنِ الأَدْنَيْنَ واسْتَبْقِ وُدَّهُمْ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا[1]

ونجد هذا المعنى في قول يزيد بن مالك العامري، معبراً عن السيطرة على الجهل وامتلاك الحلم:

أَكُفُّ الْجَهْلَ عَنْ حُلَمَاءِ قَوْمِي وَأَعْرِضُ عَنْ كَلَامِ الْجَاهِلِينَا[2]

ولذلك، فالسيد هو من اتصف بتلك الصفة، يقول المخبل:

وَأُعْطِيَ مِنا الْحِلْمَ أَبْيَضُ مَاجِدٌ رَدِيفُ مُلُوكٍ مَا تَغِبُّ نَوَافِلُهْ[3]

ومن ثم، كان من مظاهر الحلم، ما قاله علباء بن أرقم:

وَصَفَحْتُ عَنْ ذي جَهْلِها وَرَفَدْتُهُ تُضحِي وَلَمْ تُصبِ العَشِيرةَ زَلَّتِي[4]

وقد قدم كعب بن سعد الغنوي صورة بالغة الدقة والتعبير عن متطلبات السيادة العربية التي من أهم مقوماتها الحِلم، فاستعار للحلم صورة الإبل، وهي قادمة من المرعى مساء، في هدوء بعد أن نالت حظها من الرعي، ويصور الجهل على النقيض تماماً، فهي إبل نأى بها الراعي بعيداً عن الناس، يقول:

لَقَدْ كَانَ أَمَا حِلْمُهُ فَمُرَوَّحٌ عَلَيْنَا وَأَمَا جَهْلُهُ فَمَزِيبُ[5]

وهكذا أصبح المجلس العربي هو المجلس الذي تُظِله هذه الخاصية التي يحرص السادة على الظهور بها واكتسابها، يقول طرفة:

نَزَعُ الْجَاهِلَ فِي مَجْلِسِنَا فَتَرى الْمَجْلِسَ فينا كَالْحَرَمْ[6]

---

(١) ديوان شعره، ٢٣٧.

(٢) العسكري، كتاب الصناعتين، تحق. مفيد قميحة، ص١٠٤.

(٣) الأخفش، كتاب الاختيارين، ص٦٩٧، الرديف: بمنزلة خليفة. ما تغب: ما تنقطع. نوافله: عطاياه ومواهبه.

(٤) الأصمعي، الأصمعيات، ص١٦٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٥. عزيب: غائب.

(٦) ديوان، ص١١١.

ويقول زهير في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف:

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيتَ حَولَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَخلَامِهَا الْجَهْلُ[1]

وقال:

حُكَمَاءُ فِي النَادِي إِذَا مَا جِئْتَهُمْ جُهَلَاءُ يَومَ عَجَاجَةٍ وَلِقَاءِ[2]

ويقول الأعشى:

رُجُحُ الأَحْلامِ فِي مَجْلِسِهِمْ كُلَمَا كَلْبٌ مِنَ النَاسِ نَبَخ[3]

وتقول الخنساء في أخيها صخر:

وَمَنْ لِجَلِيسٍ مُفْحِشٍ لِجَلِيسِهِ عَلَيْهِ بِجَهْلٍ جَاهِداً يَتَسَرَّعُ
وَلَوْ كُنْتَ حَيّاً كَانَ إِطْفَاءُ نَارِهِ بِحِلْمِكَ فِي رِفْقٍ وَحِلْمُكَ أَوْسَعُ[4]

ثم إنهم قلما وصفوا النساء بالحِلم، إذ الحلم من علامات الرجولة والسيادة، ولذلك فلعل مفهوم الحلم هنا يقترب من معنى الغفلة وعدم المبالاة، كما صرح أبو دؤاد بانهن بُلْه، فقال:

يَكْتَبِينَ الْيَلَنْجُوجَ فِي كَبَّةِ الْمَشْـ ـتَى وَبُلْهٌ أَحْلَامُهُنَّ وِسَامُ[5]

والمعنى نفسه نجده عند المرار الذي يميل إلى وصفهن بالحلم، حسب المفهوم المتعارف عليه، أي الرزانة، وليس الخفة والطيش:

---

(١) شرح شعره، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٥.

(٣) ديوانه، ص٢٤٣.

(٤) ديوانها، ص٩٢.

(٥) غرونباوم، دراسات في الأدب العربي، ص٣٣٧. وانظر ابن منظور، اللسان «كبا».

يكتبين: يستعملن الكباء، وهو عود طيب الرائحة، اليلنجوج: العود: أي يتبخرن. كبة المشتى: شدة ضرر الشتاء.

بله أحلامهن: أراد أنهن غافلات عن الخنى والريبة. وسام: جمع وسيمة.

يَتَلَهَّينَ بِنَوْمَاتِ الضُّحَى رَاجِحَاتِ الْحِلْمِ وَالأُنْسِ خُفُرْ[1]

وهكذا «فإن هذا المعنى الدلالي لكلمة (الجهل) يجعلنا نفهم تماماً، كيف أن نقيضها (حلم) اتخذ معنى (عقل). فالعقل يقوم بدوره إذا كنتَ هادئاً محتفظاً باتزانك. إذن، فالعقل بهذا المفهوم أضيق من الحلم. بل إن الحلم هو الأساس الرئيس للعقل والتفكير. وحتى نكون أكثر تحديداً، فإن الحلم ليس المرادف الدقيق للعقل، فالعقل مفهوم أضيق من الحلم. وعلى كل، فالحلم هو أساس العقل، إنه الحالة الهادئة التي تجعل النشاط السوي للعقل ممكناً، وإنها الحالة التي تمكن العقل من القيام بدوره بهدوء وثبات بحيث يصدر أحكاماً صائبة وصحيحة، ولكنهما عملياً يصبحان متساويين في المعنى»[2].

فحسان بن ثابت يستخدم الحلم بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ، وبطريقة لافتة للنظر، في هجائه لبني الحارث بن كعب:

حَارِ ابْنَ كَعْبٍ أَلاَ الأَحْلاَمُ تَزْجُرُكُمْ عَنِّي وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَاخِيرِ
لاَ عَيْبَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَلاَ عِظَمٍ جِسْمُ الْبِغَالِ وَأَحْلاَمُ الْعَصَافِيرِ[3]

ويقول عياض بن كثير الضبي:

تَنَابِلَةٌ سُودٌ خِفَافٌ حُلُومُهُمْ وَذُو نَيْرَبٍ فِي الْحَيِّ يَغْدُو وَيَطْرُقُ[4]

ومن المجدي أن نلحظ أن القرآن الكريم يستخدم الكلمة نفسها للدلالة على المعنى في الآية: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الطور: ٣٢).

---

(١) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص١٥٤.

(٢) *Izutsu, God.., P.214.*

(٣) ديوانه، جـ١، ص٢١٩. الجوف: جمع أجوف. الجماخير: الضعاف، المستريحون.

(٤) العسكري، كتاب الصناعتين، ص١٣٦. النيرب: الشر والنميمة.

ويؤكد المستشرق الفرنسي شارل بلا هذا التقابل بين المعنيين في دراسته بعنوان «**رسالة في الحلم**» حين قال:

«يدل ما جمعناه من المستندات على أن عدم الغضب ـ أو كظم الغيظ ـ والميل إلى العفو المتوقّف على ضبط النفس وسكينتها يغلبان في الجاهلية على غيرها من مقومات الحلم»[1]. وقد سبق للمستشرق الفرنسي بلاشير أن قال عن الجاهلية: «الحقيقة أن كلمة الجاهلية تضم جميع مظاهر العنف والوحشية والتحكمية والزهو والتبجح التي حَدّ الإسلام منها أو قضى عليها»[2].

وتكون النتيجة هي:

أن الجهل ضد الحلم «وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام»[3]. ومن هنا جاء إطلاق «أبي جهل»، على أبي الحكم بن هشام الذي كُنّي بذلك لبذاءة لسانه وعداوته الشديدة للنبي ﷺ. ويبدو أنه سمي بهذا بعد السنة السادسة للبعثة، وهي السنة التي أسلم فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأن الرسول ﷺ قال: «اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»[4].

ويمكن بعد ذلك جمع تلك المعاني كلها في قول النابغة الجعدي:

وَلاَ خَيرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدّرا
وَلاَ خَيرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذا ما أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرا

---

(١) بلا، رسالة في الحلم، ص ص١٦٦ ـ ١٦٧، وانظر: ابن أبي الدنيا، الحلم.
(٢) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ص٤٤.
(٣) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ١٩، ص٦٩.
(٤) الجوزي، زاد المسير، جـ١، ص٣٧٠.

فَفِي الْحِلْمِ خَيْرٌ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ وَفِي الْجَهْلِ أَحْيَانًا إِذَا مَا تَعَذَّرَا[1]

وإذا ما عدنا إلى النظر في معنى الحِلم، فإنا نجد أنه لا يتعدى الناحية الفسيولوجية، أي السيطرة على الانفعالات والتوترات حتى لا يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة، ولا علاقة لهذا بالدين، أي التأمل والتدبر والتفكر فيما وراء المنظور المحسوس، وإنما يدور في الحدود المادية.

(١) شعره، ص٦٩.

الفصل الرابع
علاقة الجهل بالأمية والدين

أ ـ الجهل بمعنى الأمية[1]

اتضح لنا من كل التحليلات التفصيلية السابقة لمدلول كلمة «جهل» ونقيضها «حلم» أنها كلها تدور حول الحالة النفسية والذهنية سلباً أو إيجاباً، بيد أن عنترة يقول:

هَلاَّ سَأَلْتِ الْخَيلَ يَا بْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي[2]

فهل يعني الجهل هنا أنه نقيض العلم وليس الحلم؟ قد يبدو هذا المعنى صحيحاً نوعاً ما، غير أن التأمل فيه يظهره غير بعيد عن المعاني السابقة، لا سيما المعنى الآخر، أي عدم القدرة على رؤية الأشياء رؤية محددة. كما أن عبارة «**لم تعلمي**» تعني عدم المعرفة، ويمكن أن نرى هذا في قول النابغة:

---

(١) انظر: حول الأمية: لوساني، نظرات جديدة في تاريخ الأدب ص ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ حيث يرى أن النسبة إلى «أمي» التي جاءت في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿**ليس علينا في الأميين سبيل**﴾ (آل عمران ـ آية ٧٥) هي نسبة أطلقها اليهود على غيرهم. شحلات، مفهوم الأمية في القرآن، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ص ص١٠٣ ـ ١٢٥ الذي يلخص المفهوم في أن الأمي هو «الذي لا يعرف كتاباً سماوياً حقيقة، أي بقي على طبيعته الأصلية دون تهذيب» ص١٢١. وقد كان الشائع أن «الأميون» هم العرب، أو الذين لا يعرفون القراءة والكتابة.

(٢) ديوانه، ص٢٥.

يُنبِئُكَ ذُو عِرْضِهِمْ عَنِّي وَعَالِمُهُمْ وَلَيسَ جَاهِلُ شَيءٍ مِثْلَ مَنْ عَلِمَا[1]

وهذا هو المعنى المراد أيضاً في قول كعب بن سعد الغنوي:

وَلاَ يَلْبَثُ الْجُهَّالُ أَنْ يَتَهَضَّمُوا أَخَا الْعِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنْ بِجَهُولِ[2]

ومع ذلك، فليس بعيداً أن يكون معنى **عدم المعرفة** هو المراد. يدل على ذلك قول عبدة بن الطبيب:

إِنْ كُنتَ تَجْهَلُ مَسْعَاتِي فَقَدْ عَلِمَتْ بَنُو الْحُوَيْرِثِ مَسْعَاتِي وَتَكْرَارِي[3]

وقول عوف بن الأحوص:

فَهَلْ لَكَ فِي بَنِي حُجْرِ بنِ عَمْرٍو فَتَعْلَمَهُ وَأَجْهَلَهُ وَلاءُ[4]

ولكن المعرفة **هنا لا تعني بحال من الأحوال المعرفة الكتابية، وإنما تعني المعرفة اليقينية الإدراكية.**

وهذا هو المعنى المراد في قوله تعالى:

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾.

وقوله سبحانه:

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾.

وقوله عزَّ وجل:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ (النحل: ١١٩).

«فإطلاق الجهل على ضد العلم عربي قديم»، ولكنه **العلم** الذي

---

(١) ديوانه، ص٦٣.

(٢) البحتري، حماسة، ص١٦٨.

(٣) شعره، ص٤٠.

(٤) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص٣٤٥.

تحدثنا عنه عند تفسير الآيات الكريمة السابقة، أي **الخُبْر والمعرفة**[1].
ويؤكد هذا الاستنتاج ما تذهب إليه بعض الدراسات الحديثة من التأكيد على أمية الجاهليين[2].

ب ـ الجهل بالدين

وبعد تناول تلك المظاهر المختلفة للجهل، ووضوح صورها المتعددة في جوانبها المختلفة التي نرى أنها تعود كلها إلى المعنى المشار إليه في السابق، فلا مجال بعد ذلك، لافتراض خروج دلالات أخرى عن ذلك المدلول الواسع جداً، وإنما تأتي ضمن دلالات أقل أهمية، كما جاء المعنى الدلالي السابق للجهل بمعنى المعرفة.

أما استخدام اللفظة ومشتقاتها للدلالة على الدين فهو، كما تبين لنا من أقوال الشعراء قبل الإسلام، ومن استعمالات القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، جاء مع الإسلام نفسه.

يقول أبو هلال العسكري في هذا: «**لم تعرف كلمة الجاهلية قبل الإسلام**»[3] وهو ما رآه ابن خالويه قبله حين قال: «**إن لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة**»[4].

ونخلص بعد ذلك إلى أن المفهوم الدلالي للجاهلية قبل الإسلام لم يكن يخرج عن محوره الذي دار حوله، وهو كل فعل يعكس تصرفاً أحمق، طائشاً، متهوراً، قد يؤدي إلى سفك للدماء، أو نهب للأموال، أو انغماس في الشهوات، وعدم ترك فرصة للعقل كي يتحقق من المواقف، ويتثبت من الإجراء. وقد أوضح الشعراء

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٤، ص٥٧، وانظر جـ١، ص٥٤٨.
(٢) انظر ما سيأتي في باب الكتابة.
(٣) العسكري: الأوائل، جـ١، ص١٠٤.
(٤) ابن خالويه، كتاب ليس في كلام العرب، ق١، ص٧٣.

الإسلاميون بعد ذلك هذا المفهوم بجلاء منقطع النظير، فقال ابن مقبل:

هَلْ عَاشِقٌ نَالَ مِنْ دَهْمَاءَ حَاجَتَهُ فِي الْجَاهِلِيَةِ قَبْلَ الدِّينِ مَزْجُومُ[1]

فابن مقبل ينص صراحة على «قبل الدين» أي قبل الإسلام، أما الجاهلية، فهي الضد والنقيض والدين، أي الإسلام، شريعة وتوجهاً؛ أما الجاهلية، فانفلات من كل قيد، وخضوع لما جَبّه الإسلام؛ إنها الكفر، حسب معتقد ابن مقبل الآن.

ولم يخرج الشعراء الإسلاميون عامة عن ذلك الفهم، فهذا الأخطل يقول:

شَرِبْنَا فَمِتْنَا مِيتَةً جَاهِلِيَةً مَضَى أَهْلُهَا لَمْ يَعْرِفُوا مَا مُحَمَّدُ[2]

فالأخطل، الشاعر النصراني، يجعل من شرب الخمرة، وعدم التقيد برادع من الروادع، هو من عدم معرفة محمد، أي ـ دين محمد ـ أي إن الجاهلية هو ذلك التصرف الذي تعكسه الاستعارة «**فمتنا ميتة**»، وكأنه يشير إلى الحديث الشريف الذي مر بنا «**ميتة جاهلية**». وهذا واضح من قول الفرزدق في الإشارة إلى عبادة الأصنام في الجاهلية، أي في تلك الفترة التي كان يحكم فيها الخفة والسفه والطيش:

تَرَى حَوْلَهُنَّ الْمُعْتَفِينَ كَأَنَّهُمْ عَلَى صَنَمٍ فِي الْجَاهِلِيَةِ عُكَّفُ[3]

ويقول الزبرقان بن بدر في قحطان:

وَهُضْنَاكُمُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْقَنَا فَدَانَتْ لَنَا مِنكُمْ قُلُوبٌ كَوَاظِمُ[4]

---

(١) ديوانه، ص٢٦٧.

وكان ابن مقبل قد خلف على امرأة أبيه دهماء في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، فرق بينهما، فكان يتأثم من ذلك، ويسأل الله الرحمة والعفو عنه.

(٢) شعره، جـ٢، ص٧٣٢.

(٣) ديوانه، جـ٢، ص٢٩.

(٤) الهمداني، الإكليل، جـ٢، ص٢١٣.

وسواء كان القطامي، الشاعر التغلبي، مسلماً أم نصرانياً، كقريبه الأخطل، فهو الذي يقول، جامعاً بين المعنى الدلالي والمعنى الديني:

زَمَانَ الْجَاهِلِيَّةِ كُلَّ حَيٍّ أَبَزْنَا مِنْ فَصِيلَتِهِ لِمَاعَا[1]

إنه عنفوان الجاهلية ـ الحرب والطيش ـ المسببات للهلاك والدمار. وهذان المعنيان هما اللذان ركز عليهما الفرزدق في قوله:

فَلَوْ كَانَ هَذَا الْحُكْمُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفْتَ مَنِ الْمَوْلَى الْقَلِيلِ حَلَائِبُهْ[2]

فالجاهلية: تعني السيطرة والغلبة، نتيجة لممارسة العنف، وتعني: الفترة الزمنية قبل الإسلام، ولم يزد الطرماح عن التركيز على قيم الجاهلية في قوله، يمدح أوس بن سعد:

الْمُنْعِمِ النَّعِمَ اللَّاتِي سَمِعْتُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَكَّاكِ لِلْكُرَبِ[3]

ويقول ابن الرقيات:

وَالْبُحُورُ الَّتِي تُعَدُّ إِذِ النَّـ ـاسُ لَهُمْ جَاهِلِيَّةٌ عَمْيَاءُ[4]

وتكفي الصفة عمياء، لتجتمع فيها كل المعاني التي ذكرناها خلال تحليل دلالاتها تلك.

وكان الراعي قد عبّر عن العاطفة نفسها في قوله:

فَإِنْ تَغْدُونَا الْجَاهِلِيَّةَ إِنَّنَا لَنُحْدِثُ فِي الْأَقْوَامِ بُؤْسَى وَأَنْعُمَا[5]

أما عروة بن أذينة، فيقول:

---

(١) ديوانه، ص٣٦. لماعا: أي قطعة قطعة.

(٢) ديوانه، جـ١، ص٧٣٢. الحلائب: النياق التي تعطي حليباً، يفتخر بغنى قومه.

(٣) ديوانه ص١٥.

(٤) ديوانه ص٩٣.

(٥) شعره، ص١٩٣.

وَنَحْنُ أَكَلْنَا الجَاهِلِيَّةَ أَهْلَهَا غِوَاراً وَشَذَّبْنَا مُجِيرَ اللَّطَائِمِ[1]

وقال:

وَلَمْ يَهْلِكُوا إلاَّ عَلَى جَاهِلِيَّةٍ عَصَاهَا عَلَيْهِمْ تُرْتَبٌ وعَذَابُهَا[2]

وهكذا يقول الكميت، مبيناً ممارسة قيم الجاهلية: الغزو والمروءة، وممارسة عاداتها المذمومة آنذاك:

هُمُ الْمُغِيرُونَ وَالْمَغْبُوطُ جَارُهُمُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذْ تُسْتَأْمَرُ الرُّلَمُ[3]

فالجاهلية إذن، هي تلك الفترة السابقة على الإسلام، التي اتصفت بتلك الصفات، كما قال ابن وهب الدوسي:

تُحَبُّ رَوْضَاتُنَا جُذْبَاً وَمُمْرِعَةً كَمَا تُحَبُّ إِذَا مَا صَحَّتِ الإِبِلُ
نَحْنُ حَفَرْنَا بِهَا حَفْرَاءَ رَاسِيَةً فِي الْجَاهِلِيَةِ أَعْلَى حَوْضِهَا طَحِلُ[4]

وكما قال الفرزدق أيضاً في مقابلة بين الجاهلية والإسلام:

فِي حَوْمَةٍ غَمَرَتْ أَبَاكَ بُحُورُهَا فِي الْجَاهِلِيَةِ كَانَ وَالإِسْلَامِ[5]

وقال أدهم بن أبي الزعراء الطائي في موافقة حكومة ذرب بن حوط الطائي حكم الإسلام في الخنثى:

مِنَّا الَّذِي حَكَمَ الحُكُومَ فَوَافَقَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ سُنَّةَ الإِسلامِ[6]

ومن ثم نرى أن مفهوم الجهل ونقيضه الحلم، قد تطورا فيما

---

(١) شعره، ص٢٤١. شذبنا: قطعنا وفرقنا. مجير اللطائم: الذي يحمي العير التي تحمل الطيب وبَزّ التُجار.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٦. ترتب: ثابت.
(٣) شعره، جـ٢، ص١٠٢.
(٤) ياقوت، معجم البلدان، جـ٣، ص٨٨.
(٥) ديوانه، جـ٢، ص٣٠٥.
(٦) ابن حبيب، المحبر، ص٢٣٦.

بعد بحيث: «يمكننا أن نعد الحلم تصوراً سابقاً للمعنى الديني للإسلام نفسه، ويبدو ذلك في اتخاذ الدين الجديد المفهوم القديم لحليم لتعني المسلم أو المؤمن»[1].

وتكون الخلاصة أن الجهل هو ما يمثله قول عمرو بن كلثوم:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا[2]

وما عبر عنه حنظلة الراهب بقوله:

أَحْلاَمَنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَزَانَةً وَيَزِيدُ جَاهِلُنَا عَلَى الْجُهَّالِ[3]

فالحلم له حدود، وإذا ما تجاوز **الجهل** تلك الحدود، فإن رد الفعل سيكون قاسياً وقاسياً جداً، ولعل الاستجابة الفورية التالية للجهل، وعدم معالجة الأمور بمقاييس أخرى، هي أبرز السمات التي صاحبت الشخصية العربية فيما قبل الإسلام، وكانت لها دوماً نتائجها الوخيمة، رغم تلك الادعاءات بالسيطرة على النفس والتحكم فيها. وقد أدى ذلك إلى تغييب العقل عن النظر إلى الواقع بتأمل وتفكير، حتى لم يعد الإنسان الجاهلي بقادر على التخلص من سيطرة العادة والتقليد، فدخل مفهوم الكفر والشرك في معنى الجاهلية، وتلك كانت تسمية إسلامية.

ومن ثم أصبحت **«الجاهلية»** مقابل الإسلام، فالإسلام: يعني

---

(١) *Izutsu, God.., P.204.*

(٢) ابن كيسان، معلقة عمرو بن كلثوم، ص١١٧.

(٣) الآمدي، المؤتلف والمختلف، ص١٨٠.

ويمكن في ضوء تلك الاستنتاجات الاستفادة من فكرة «القالب الصياغي» أو «القوالب التعبيرية» التي راجت في هذه الفترة. وذلك بملاحظة التزام الشعراء القدامى بصياغة تلك الأفكار في ألفاظ يدورون حولها، ولا يخرجون عن مدلولاتها في الحلم والجهل. ونجد شواهد كثيرة على ذلك مثلاً في: العسكري، كتاب الصناعتين، ص ص١١٩ - ١٢٠.

الحلم والعلم والأخلاق الحميدة، أما الجاهلية: فالتسرع، والاندفاع، والغضب، والفتنة. وعلى هذا يمكن أن نستنتج:

«أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقام الذم. وقالوا: شعر الجاهلية، وأيام الجاهلية، ولم يسمع ذلك كله إلا بعد نزول القرآن، وفي كلام المسلمين»[1].

وبالإضافة إلى ذلك فإن لفظة **الجاهلية**، مصدر صناعي، ولم ترد المصادر الصناعية في القرآن الكريم إلا في لفظين الأول هو هذه، والآخر هو «**الرهبانية**» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ (الحديد: ٢٧).

فالإسلام هو الحلم، والحلم هو الإسلام؛ إنه نقيض كل مفاهيم الجهل السابقة، إنه العقل والتفكير، والروية والاتزان والكياسة؛ أما الجهل، فهو: الطيش، والنزق، والفتنة، وعدم اليقين؛ إنه الفساد، والكفر، والظلم، والشرك، وعبادة غير الله.

﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

﴿﴾.

---

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٤، ص١٣٦.